ميزان العمل

تأليف

حجة الإسلام
الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي
الطوسي

ضبطه وقدّم له
سليمان سليم البوّاب

منشورات دار الحكمة
دمشق - بيروت

حقوق الطبع محفوظة ـ
١٩٨٦م - ١٤٠٧هـ

دار الحكمة
للطباعة والنشر

دمشق ـ سورية ـ بناء سادكوب ـ الحلبوني

سجل تجاري ٢٤٩٦٨

هاتف ٢١٢٩٦٧ ـ ٢٣٠٧٣٨

ص.ب ٧٨٧ ـ دمشق

ص.ب ١١٣/٥٧٢٠ بيروت

حجة الإسلام

هو: زين الدين محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي .. والمعروف باسم: «أبو حامد الغزالي» ويلقب: «حجة الإسلام»...

ولد «أبو حامد الغزالي» سنة ٤٥٠ هـ الموافق ١٠٥٨ م» في «الطبران» من مدن «طوس» من «خراسان» .. في عصر كانت فيه الفتن الدينية والسياسية تعصف بأمن البلاد وطمأنينة أهلها..

وكان والد الإمام الغزالي فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده.. كان كثير الدعاء يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى في أن يجعل ولده فقيهاً واعظاً.. غير أنه توفي قبل أن يرى ولده ذلك الأصولي الحاذق الماهر.. والفقيه الحر.. والمتكلم إمام السنّة.. والاجتماعي الخبير.. والفيلسوف القدير الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف وأباطيل.. والمربي الصادق العادل.. والصوفي الزاهد النبيل.. بل فحسب.. دائرة معارف عصره..

عاش الغزالي فترة الصبا الأولى في مدينة «طوس».. فكان الأساتذة الذي تعلم على أيديهم من المتصوفين الذين نثروا البذور الأولى للتصوف في نفسه.. فأزهرت وأينعت وأثمرت أفضل الثمار بعد ذلك..

وعند بلوغ الغزالي سن العشرين ارتحل إلى «جرجان» .. فبقي فيها فترة من الزمن يتلقى العلم.. ثم عاد إلى طوس.. وفي الطريق تعرض لسطو من رجال اللصوص هو وقافلته.. إلا أنه افلح في استعادة كتبه بعد أن استعطف اللصوص.. فكانت هذه الحادثة عبرة له ولها من الأثر الكبير في نفسيته فعكف بعدها على الدراسة والمثابرة على حفظ ما يعثر عليه من كتب.. وهو مؤمن بأن العلم هو ما وعته الصدور.. لا ما نقش في السطور.. فاتخذ الحفظ قاعدة له وطريقة لازمها طوال حياته.. وجعل الذاكرة هي المورد الذي يرده والمصدر الذي يصدر عنه.. ولعل هذا كان سبباً في كثرة مصنفاته العديدة التي تعدت نحو مئتي مؤلف.. وانتقل الإمام الغزالي بعد ذلك إلى نيسابور . وفيها المدرسة النظامية .. وكانت تحفل هذه المدرسة بالعلم وبأجل العلماء وعلى رأسهم إمام الحرمين .. وقد وجد الإمام الغزالي في هذه المدرسة المعرفة والعلم بأبوابهما العريضة وهو المتعطش لهما.. والنهم إلى التقاط فرائدهما ودررهما.. فأكب على تحصيل علومه بجد وجهد دؤوب وبعقل متفتح وذهن صاف.. فكانت إقامة الإمام الغزالي في المدرسة النظامية تعتبر إعداداً علمياً ونفسياً له.. فقد شهد مجالس العلم.. وحضر كثيراً من المناقشات والمناظرات والمحاورات وشارك فيها.. فأحس بالثقة تملأ قلبه.. وبالإيمان

بقدرته على أنه قادر على خوض معارك الفكر في ساحاته الكبيرة.. حتى برع في المذهب والخلاف والجدل والمنطق والحكمة والفلسفة.. فأحكم كل ذلك.. وفهم كلام أرباب هذه العلوم.. وتصدى للرد عليهم وابطال دعاويهم.. وصنف في كل ذلك كتباً أحسن تأليفها وأجاد وصفها وترصيفها.. وكان شديد الذكاء وعجيب الفطرة مفرط الادراك بعيد الغور غواصاً في المعاني الدقيقة.. جبل علم مناظراً محجاجاً.. فكان إمام الحرمين يصف تلامذته فيقول عن الغزالي بأنه بحر مغرق...

وقصد الإمام الغزالي بيت الله الحرام سنة ٤٨٨.. وتوجه بعدها إلى الشام واعتكف في زاويته في الجامع الأموي والمعروفة اليوم.. بالزاوية الغزالية.. ولبس الخشن من الثياب.. وقلل طعامه وشرابه.. وأخذ في التضيف للاحياء ومن ثم عاد إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء والصوفية ووزع أوقاته على وظائف عديدة بدءاً من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم وإداء الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمته تعالى في الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥... الموافق لسنة ١١١١م...

....**

هذا الكتاب :

قال الإمام الغزالي في نهاية كتابه « معيار العلم » :

[وإذا كانت السعادة في الدنيا والآخرة لا تنال إلّا بالعلم .. وكان يشتبه الحقيقي بما لا حقيقة له .. وافتقر بسببه الىٰ معيار .. فكذلك يشتبه العمل الصالح النافع في الآخرة بغيره .. فيفتقر إلى ميزات تدرك به حقيقته .. فلنصنف كتاباً في ميزان العمل كما صنفناه في « معيار العلم » .. ولنفرد ذلك الكتاب بنفسه ليتجرد له من لا رغبة له في هذا الكتاب] ...

وعلى هذا الأساس .. ولما لهذا الكتاب من قيمة رائعة .. فقد آليت على نفسي العناية به .. وتنقيحه من الشوائب .. وشرح ما فيه من إبهامات .. وترتيب فصوله .. كما وعمدت الى الآيات الكريمة فأعدتها الىٰ سورها .. والأحاديث الشريفة بينت الصحيح من الضعيف .. ومهدت لذلك كله بترجمة موجزة عن حياة الإمام الغزالي بينت فيها ما له من فضل وعلم ومنزلة وقدر بين العلماء والمسلمين ...

وأخيراً .. حرصاً على تراثنا العربي الأصيل .. بعد أن تُرجم هذا الكتاب الى اللغة العبرية .. ترجمه « ابراهام بن حسداي بن حموئيل هاليفي » من برشلونة .. تحت عنوان : الميزان الصادق .. وقد أخذها من سفر اللاديين ١٩ : ٣٦ .. وسفر أيوب ٣١ : ٦ .. وقد تلاعب المترجم العبري في نقل بعض النصوص المقتبسة الواردة في الأصل .. وخصوصاً الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .. حيث استبدل بها آيات من الكتاب المقدس .. وعبارات من التلمود .. وكذلك وضع أشعاراً نقلها خصوصاً عن حموئيل هانجد .. وشعراء آخرين .. وفضلاً عن كل ذلك .. كان

يحذف « قوله تعالى » ـــ « قال صلىٰ الله عليه وسلم » فيضع بدلاً عنها قال أحد الحكماء » وأحياناً يقول : « قال أحد الذين ادعوا النبوة » .. وكان يذكر الفاتحة : السورة الأولى من القرآن الكريم على أنها دعاء خاص لأحد الحكماء ..

وهكذا عبث المترجم العبري الخسيس بالنص الأصلي في كل المواضيع التي لا توافق هواه .. فضلاً عن سوء الفهم لكثير من العبارات الأصلية .. وعلى كل حال .. حسبي أني أوجدت هذا الكتاب النفيس بثوب جديد .. وانه لمن دواعي سروري أن ألتقط القلم لأجد ما ألفه الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي .. سائلاً المولى عزّ وجلّ أن يهدي بهذا الكتاب وينفع ..

والله من وراء القصد ...

سليمان

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام الهمام ، حجة الإسلام ، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، رضي الله تعالى عنه وأرضاه : لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل ، وافتقر كل واحد منهما إلى الإحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغنا منه ، وجب معرفة العمل المسعد ، والتمييز بينه وبين العمل المشقي . فافتقر ذلك أيضاً إلى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه ونبين أن الفتور عن طلب السعادة حماقة ، ثم نبيّن أن لا طريق إلى السعادة إلا بالعلم والعمل ، ثم نبيّن العلم وطريق تحصيله ، ثم نبيّن العمل المسعد وطريقه . وكل ذلك بطريقة تترقى عن حد طريق التقليد إلى حد الوضوح ، لو استقصى بحقيقته وطوّل الكلم فيه ارتقى إلى حد البرهان على الشروط التي ذكرناها في « معيار العلم »(١) . وإن كنا لسنا نطوّل الكلام به ، ولكن نرشد إلى أصوله وقوانينه .

بيان ان الفتور عن طلب السعادة حماقة :

السعادة الآخروية التي نعني بها بقاء بلا فناء ، ولذة بلا عناء ، وسرور

---

(١) مؤلف الغزالي المعروف في علم المنطق ، وضعه قبل تأليفه لتهافت الفلاسفة ، سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م .

بلا حزن ، وغنى بلا فقر ، وكمال بلا نقصان ، وعز بلا ذل ، وبالجملة كل ما يتصوّر أن يكون مطلوب طالب ومرغوب راغب ، وذلك أبد الآباد ، على وجه لا تنقصه تصرم [1] الأحقاب [2] والآماد [3] ، بل لو قدّرنا الدنيا مملوءة بالدّرر ، وقدّرنا طائراً يختطف في كل ألف سنة حبة واحدة منها ، لفنيت الدّرر ولم ينقص من أبد الآباد شيء . فهذا لا يحتاج إلى استحثاث على طلبه ، وتقبيح الفتور فيه بعد اعتقاد وجوده ، إذ كل عاقل يتسارع إلى أقل منه ، ولا يصرف عنه كون الطريق إليه متوعراً ، ومحوجاً إلى ترك لذات الدنيا ، واحتمال أنواع من التعب هنا . فإن المدة في احتمال التعب منحصرة ، والفائت فيها قليل . واللذات الدنيوية منصرمة منقضية . والعاقل يتيسر عليه ترك القليل نقداً في طلب أضعافه نسيئة . ولذلك ترى الخلق كلهم في التجارات والصناعات ، وحتى في طلب العلم ، يحتملون من الذل والخسران ، والتعب والنصب ، ما يعظم مقاساته طمعاً في حصول لذة لهم في المستقبل ، تزيد على ما يفوتهم في الحال زيادة محدودة ، فكيف لا يسمحون بتركه [4] في الحال للتوصل إلى مزايا غير مقدرة ولا محدودة . ولم يخلق في الدنيا عاقل هو حريص على طلب المال ، كلف بذل الدينار وانتظار شهر ليعتاض [5] منه بعد مضي الشهر الإكسير الأعظم [6] الذي يقلّب النحاس

---

(١) تصرم : تقطع .

(٢) الأحقاب : المدد الطويلة من الدهر لقوله تعالى : « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً » .

(٣) الآماد : الآجال .

(٤) في الأصل : بترك .

(٥) يعتاض : يأخذ العوض منه .

(٦) الاكسير الأعظم : مادة مركبة كان الأقدمون يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب والأكسير : شراب في زعمهم يطيل الحياة .

ذهباً إبريزاً[1]، إلا تسمح نفسه ببذله،وإن كان ذلك فواتاً في الحال.حتى أن من لم يحتمل ألم الجوع مثلاً ، في مثل هذه المدة ليتوصل به إلى هذه النعم الجسيمة ، لم يعدّ عاقلاً ، ولعل ذلك لا يتصور وجوده في الخلق ، مع أن الموت وراء الإنسان بالمرصاد ، والذهب لا ينفع في الآخرة . وربما يموت في الشهر أو بعد الشهر بيوم فلا ينتفع بالذهب. وكل ذلك لا يفتر رأيه في البذل ، طمعاً في هذا العوض . فكيف يفتر رأي العاقل في مقاساة الشهوات ، في أيام العمر وأقصاها مائة سنة ، والعوض الحاصل عنها سعادة لا آخر لها ؟ ولكن فتور الخلق عن سلوك طريق السعادة لضعف إيمانهم باليوم الآخر ، وإلا فالعقل الناقص قاض بالتشمير لسلوك طريق السعادة فضلاً عن الكامل .

بيان أن الفتور عن طلب الإيمان به أيضاً حماقة :

أقول : ان فتور الإيمان أيضاً مع أنه من الحماقة ، فليس يقتضي الفتور في سلوك سبل السعادة ، لولا الغفلة . فإن الناس في أمر الآخرة أربع فرق : فرقة اعتقدت الحشر والنشر والجنة والنار ، كما نطقت به الشرائع ، وأفصح عنه وصفه القرآن ، وأثبتوا اللذات الحسية التي ترجع إلى المنكوح والمطعوم والمشموم والملموس والملبوس والمنظور إليه ، واعترفوا بأنه يضاف إلى ذلك أنواع من السرور ، وأصناف من اللذات التي لا يحيط بها وصف الواصفين ، فهي « مما لا أعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » [2]. وأن ذلك يجري أبداً بلا انقطاع ، وأنه لا ينال إلا بالعلم والعمل . وهؤلاء هم المسلمون كافة ، بل المتبعون للأنبياء على الأكثر من اليهود والنصارى ، وفرقة ثانية ، وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة ، اعترفوا بنوع من

---

(١) لإبريز : الذهب الخالص .

(٢) أنظر الحديث رقم / ١ / .. فهرس الأحاديث ...

اللذة لا تخطر على قلب بشر كيفيتها ، وسموها لذة عقلية . وأما الحسيات فأنكروا وجودها من خارج . ولكن أثبتوها على طريق التخيل في حالة النوم . ولكن النوم يتكدر بالتنبه ، وذلك لا تكدر له بل هو على التأبيد . وزعموا أن ذلك يثبت لطائفة من المشغوفين بالمحسوسات ، والذين التفات نفوسهم مقصور عليها ، ولا يسمون إلى اللذات العقلية . وهذا لا يفضي إلى أمر يوجب فتوراً في الطلب ، فإن الالتذاذ إنما يقع بما يحصل في نفس الإنسان من التأثر بالملموس والمنظور والمطعوم وغيره . والشيء الخارج سبب في حصول الأثر ، وليست اللذة من الأثر الخارج بل من الأثر الحاصل عند حضور الخارج . فإذا أمكن حصول الأثر في النفس دون الشيء الخارج ، كما في حالة النوم ، فلا أرب في الشيء الخارج . وفرقة ثالثة ذهبوا إلى إنكار اللذة الحسية جملة ، بطريق الحقيقة والخيال ، وزعموا أن التخيل لا يحصل إلا بآلات جسمانية ، والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن ، الذي هو آلته في التخيل وسائر الاحساسات ، ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعد أن أطرحه ، فلا يبقى له إلا آلام ولذات ليست حسية ولكنها أعظم من الحسية . فإن الإنسان في هذا العالم أيضاً ميله إلى اللذات العقلية ، ونفرته عن الآلام العقلية أشد ، ولذلك يكرهون في الطلب إراقة ماء الوجه ، ويؤثرون الاحتراز عن الافتضاح ، والاستتار في قضاء شهوة الفرج ، ومقاساة الألآم والمشقات . بل قد يؤثر الانسان ترك الطعام يوماً أو يومين ، ليتوصل به إلى لذة الغلبة في الشطرنج ، مع حسيته ، ولذة الغلبة عقلية . وقد يهجم على عدد كبير من المقاتلين ليقتل ويحتاض عنه ما يقدره في نفسه من لذة الحمد والوصف بالشجاعة .

وزعموا أن الحسيات ، بالإضافة إلى اللذات الكائنة في الدار الآخرة في غاية القصور . وتكاد يكون نسبتها كنسبة إدراك رائحة المطعوم اللذيذ إلى ذوقه ونسبة النظر في وجه المعشوق إلى مضاجعته ومجامعته ، بل أبعد منه

نسبة . وزعموا أن ذلك لما بعد عن فهم الجماهير مثّلت لهم تلك اللذات بما عرفوها من الحسيات ، كما أن الصبي يشتغل بالتعلم لينال به القضاء أو الوزارة ، وهو لا يدرك في الصبي لذاتهما ، فيوعد بأمور يلتذ بها كثيراً كصولجان (١) يلعب به ، أو عصفور يعبث به وأمثاله ، وأين لذة اللعب بالعصفور من لذة الملك والوزارة ؟ ولكن لما قصر فهمه عن درك الأعلى مثّل بالأخس ، ورغّب فيه تلطفاً باستدراجه إلى ما فيه سعادته . وهذا أيضاً إذا صح ، فلا يوجب فتوراً في الطلب ، بل يوجب زيادة الجد . وإلى هذا ذهبت الصوفية والإلهيون من الفلاسفة من عند آخرهم ، حتى أن مشايخ الصوفية صرّحوا ولم يتحاشوا ، وقالوا : من يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم . وإنما مطلب القاصدين إلى الله أمر أشرف من هذا . ومن رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنّفين منهم ، فهم هذا الاعتقاد من مجاري أحوالهم على القطع .

وفرقة رابعة وهم جماهير من الحمقى ، لا يُعرفون بأسمائهم ولا يعدون في زمرة النظار ، ذهبوا إلى أن الموت عدم محض ، وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما ، ويرجع الإنسان بعد موته إلى العدم ، كما كان قبل وجوده . وهؤلاء لا يحل تسميتهم فرقة ، فإن الفرقة عبارة عن جمع ، وليس هذا مذهب جمع ، ولا منسوباً إلى ناظر معروف ، بل هو معتقد أحمق بطّال غلبت عليه شهوته ، واستولى عليه شيطانه ، فلم يقدر على قمع هواه ، ولم تسمح له رعونته بأن يعترف بالعجز عن مقاومة الهوى ، فيتعلل لنقصانه بأن ذلك واجب وأنه الحق . ثم أحبّ أن يساعده غيره ، فدعا إلى البطالة وما جلبت عليه النفس من اتباع الهوى الذي هو أشد حامل للأحمق على المسارعة إلى التصديق به ، لا سيما وقد يحتال بعض الفسقة بنسبة هذا المعتقد إلى معروف

(١) الصولجان : عصا معقوف طرفها يضرب بها الفارس الكرة .

بدقائق العلوم ، كارسطوطاليس [1] وأفلاطون [2] ، أو إلى فرقة كالفلاسفة ، ويستدرج السامع بأن معرفتك لا تزيد على معرفتهم ، وقد بحثوا زماناً وما تحصلوا على طائل . ولا يشعر ذلك المسكين بتلبيسه ، فيصدقه لموافقته طبعه ، ولا يطالبه بالبرهان في نقل المذهب عمّن نقله . ولو أخبره بأثر يتعلق به خسران درهم ، لكان لا يصدقه إلا ببرهان ، ولو قال : إن أباك أقر لفلان بعشرة الدراهم التي خلفها لك ، ومعه به سجّل فيه خط الشهود ، لقال : ما الحجة فيه وأين الشاهد الحي الذي يشهد به ؟ وأي خبر في السجّل المكتوب ، وفي نقل الخطوط ؟ ثم يصدّقه في نقل مذهب من سمّاه من غير شاهدين يشهدان على سماعه ، ومن غير عرض خطّ ذلك المذكور ، ومن غير عرض تصنيف من تصانيفه ، ولو بخط غيره . ثم لو سمع ذلك المذكور بإذنه يصرّح بذلك ، لكان ينبغي أن يتوقف في القبول زاعماً أنه لا برهان عليه ، وأن كان أخذه تقليداً . فتقليد الأنبياء والأولياء والعلماء ، بل تقليد الجماهير والدهماء [3] من الخلق أولى من تقليد واحد ليس معصوماً من الخطأ .

فأنت الآن أيها المسترشد ، بعد أن عرفت هذه المعتقدات ، لا يخلو حالك في اعتقاد الفرقة الضالة عن أربعة أقسام : إما أن تكون قاطعاً ببطلانه ، أو ظاناً لبطلانه ، أو ظاناً لصحته ظناً غالباً ، ومجوزاً لبطلانه بطريق الإمكان البعيد ، أو قاطعاً بصحته . وكيف ما كنت فعقلك يوجب عليك الاشتغال بالعلم والعمل ، والإعراض عن ملاذ الدنيا ، إن سلم عليك عقلك ، وصحّت خبرتك . وذلك لا يخفى إن كنت قاطعاً ببطلانه . وإن كنت تظنّ بطلانه ظناً

---

(١) ارسطوطاليس : فيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية ، تأثرت بواد التفكير العربي بتآليفه .

(٢) أفلاطون : من مشاهير فلاسفة اليونان تلميذ سقراط ومعلم ارسطوطاليس .

(٣) الدهماء : عامة الناس وسوادهم .

غالباً ، تقاضاك عقلك التشمير (١) في طلبه ، كما يتقاضى العقل تجشم (٢) المصاعب في ركوب البحر ، لطلب الربح ، وفي تعلم العلم في أول الشباب ، لطلب الرياسة عند من يطلبها ، وفي نيل الوزارة أو باب من أبواب الكرامة بمقاساة مقدماتها . وعواقب تلك الأمور مظنونة ، وليست مقطوعاً بها ، بل إذا غلب على ظنّ الحريص على الدنيا أن الكيمياء له وجود ، ويحتمل عنده عدمها ، وعلم أن تعب شهر يوصله إليها ، إن كان لها وجود ، ثم يتنعم بها بقية عمره الذي يمكن أن يكون أقل من شهر ، وأن يكون كثيراً ، تقاضاه عقله أن يحتمل التعب في ذلك الشهر ويستحقره ، وإن كان معلوماً وعاجلاً ، بالإضافة إلى ما يظنه وإن كان آجلاً ولم يكن مقطوعاً به . وإن كنت تظن صحته ظناً غالباً ، ولكن بقي من نفسك تجويز صدق الأنبياء والأولياء وجماهير العلماء ، ولو على بعد ، فعقلك أيضاً يتقاضاك سلوك طريق الأمن ، واجتناب مثل هذا الخطر العائل . فإنك لو كنت في جوار ملك وأمكنك أن تتعاطى في واحد من محارمه مثلاً عملاً من الأعمال ، تظن ظناً غالباً أنه يقع منه موقع الرضى ، فيعطيك عليه خلعة وديناراً ، ويحتمل احتمالاً على خلاف الظن الغالب أنه يقع منه موقع السـخـط ، فيتكّل بك ويفضحك ، ويديم عقوبتك طول عمرك ، أشار عليك عقلك بأن الصواب أن لا تقتحم هذا الخطر . فإنك إن فعلت وأصبت ، فمزيته دينار لا يطول بقاؤه معك ، وإن أخطأت فنكاله عظيم ، يبقى معك طول عمرك ، ليس تفي ثمرة صوابه بغائلة (٣) خطئه . ولذلك إذا وجدت طعاماً وأخبرك جماعة بأنه مسموم ، أو شخص واحد حاله دون حال نبي واحد ، فضلاً عن أن يقدر على

---

(١) التشمير : المبالغة في الشمر ، والشمر الجاد المجتهد في أمره .

(٢) تجشم : تكليف المصاعب .

(٣) غائلة : الفساد والشر .

التأييد بالمعجزة ، وغلب على ظنك كذبه ، كما غلب على ظنك الآن كذب الأنبياء كلهم ، ولكن جوّزت مع ذلك صدقه وعلمت أنه ليس في أكله إلا التلذذ بطعمه وحلاوته وقت الذوق ، وإن كان مسموماً ففيه الهلاك ، فعقلك أيضاً يشير عليك باجتناب الخطر ، إن كنت من زمرة العقلاء . ولهذا قال علي رضي الله تعالى عنه لمن كان يشاغبه ويماريه في أمر الآخرة : « إن كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعاً . وإن كان الأمر كما قلت ، فقد هلكت ونجوت » . ولا ينبغي أن تظن أن هذا تشكيك منه في اليوم الآخر ولكنه زجر على حدّ جهل المخاطب القاصر عن معرفة ذلك بطريق البرهان . وهو الذي جرّأنا على سلوك هذا المنهاج ليسهل تأمله على أهل البطالة والتقصير في الطاعة لله تعالى .

وقد تبيّن على القطع أن العظيم الهائل إن لم يكن معلوماً فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر ، لأن كون الشيء مستحقراً أو عظيماً بالإضافة . فلتنظر إلى منتهى العمر وما يصفو من الدنيا للمترفهين ، وتسير إلى ما اعتقده الفرق الثلاث من كمال السعادة الآخروية ودوامها ، وتعرف بالبديهة استحقار ما ترك من الدنيا في عظيم ما يعتاض عنها بالاضافة إليها . وإن كنت في الحالة الرابعة ، وهي اعتقاد صحة مذهب الفرقة الرابعة ، فنخاطبك على حد جهلك وقصورك ، بوجهين : أحدهما أنك لم تعتقد هذا المعتقد ببرهان حقيقي ضروري ، لا يمكن الغلط فيه حتى يقال تنبهت لنوع من الدليل ، غفل عنه الأنبياء والأولياء والحكماء وكافة العقلاء. فإن الغلط إذا تطرد لهؤلاء ، مع كثرتهم وغزارة علومهم ، وطول نظرهم ، وكثرة معجزات أنبيائهم ، فماذا تأمن الغلط في اعتقادك ، وما الذي عصمك ؟ وأقل درجاتك أن يجوز الغلط على نفسك . وإن احتمل عندك صدق الجماهير وغلطك ، التحقت بالحالة الثالثة . وإن لم تتسع نفسك لهذا التجويز حتى زعمت أنك

عرفت بطلان اعتقاد الجماهير واستحالة كون النفس جوهراً باقياً بعد الموت ، أو معاداً بطريق البعث والنشور ، كما عرفت أن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن السواد والبياض لا يجتمعان ، فهذا الآن من سوء المزاج وركاكة العقل . ويبعد مثل هذا الأحمق عن قبول العلاج ، ولمثل هذا قال الله تعالى فيهم ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (١) .

الوجه الثاني : إن هذه الفرقة ، وإن أنكروا السعادة الآخروية ، فلم ينكروا السعادة الدنيوية . وأعلى السعادات الدنيوية العزة والكرامة ، والمكانة والقدرة ، والسلامة من الغموم والهموم ، ودوام الراحة والسرور . وهذا أيضاً لا يفوز به الإنسان إلا بالعلم والعمل . أما العلم ، فليس يخفى دوام العزّ به ، إذ لا يقبل العزل والإبطال ، بعزل الولاة وابطالهم . ولا يخفي لذة العالم في علمه ، وفيما ينكشف له في كل لحظة من مشكلات الأمور ، لا سيما إذا كان في ملكوت السموات والأرض ، والأمور الآلهية . وهذا لا يعرفه من لم يذق لذة انكشاف المشكلات . ثم أنها لذة لا نهاية لها ، لأن العلوم لا نهاية لها ، ولا مزاحمة فيها ، لأن المعلومات تتسع للطلاب وان كثروا ، بل استئناس العالم يزيد بكثرة شركائه ، إذا كان يقصد ذات العلم ، لا حطام الدنيا ورئاستها ، فإن الدنيا هي التي تضيق بالمزاحمة ، بل يزداد سعة بكثرة الطلاب . ثم مع أنها أوفى اللذات عن عمن أنس بها ، فهي أدومها ، اذ المنعم بها عليه هو الله وملائكته ، ولكن عند اكبابه على الطلب وتجرده له . ولذلك لا ترى جماعة من الرؤساء والولاة ، إلا وهم في خوف العزل يتشوقون أن يكون عزهم كعز العلماء . وأما العمل فلسنا نعني به إلا رياضة الشهوات النفسانية ، وضبط الغضب ، وكسر هذه الصفات ، لتصير مذعنة للعقل ، غير مستولية عليه ، ومستسخرة له في ترتيب الحيل الموصلة إلى قضاء الأوطار .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

فإن من قهر شهواته ، فهو الحرّ على التحقيق ، بل هو الملك . ولذلك قال بعض الزهاد لبعض الملوك :

« ملكي أعظم من ملك » ، فقال كيف : قال : « من أنت عبده عبدي » ، وأراد به أنه عبد شهواته ، وشهواته صارت مقهورة له . فعبد الشهوات ، العاجز عن كسرها وقهرها ، رقيق وأسير بالطبع ، لا يزال في عناء دائم وتعب متواتر ، إن قضى وطره يوماً عجز عنه أياماً . ثم لا يخلو في قضائها عن أخطار ، وعلائق ومشاق ، يضطر إلى تقلدها . فتقليل الشهوات تقليل لأسباب الغموم ، ولا سبيل إلى اماطتها إلا بالرياضة والمجاهدة ، وهو المراد بالعمل . فإذاً العالم العامل أحسن الناس حالاً ، عند من رأى السعادة مقصورة على الدنيا . فإن الدنيا ليست تصفو لأحد ، وليس يفي جدواها بمشاقها . فالممعن في اتباع الشهوات ، والمعرض عن النظر في المعقولات ، شقيّ في الدنيا باتفاق ، وشقي في الآخرة عن الفرق الثلاث ، إلا عند شرذمة من الحمقى ، لا يؤبه لهم ، ولا يعبأ بهم ، ولا يعدون في جملة العقلاء رأساً . فقد تبين ان الاستعداد للآخرة بالعلم والعمل ضروري في العقل ، وان المقصر فيه جاهل .

فان قلت : فما بال أكثر الناس مقصرين فيه وهم مؤمنون بالآخرة ؟ فاعلم أن سبب ذلك الغفلة عن التفكر في هذه الأمور التي ذكرناها فان تلك الغفلة مطردة عليهم ، مستغرقة لأوقاتهم ، لا ينتهون [1] عنها ما دامت الشهوات متوالية ، وهي كذلك . وإنما المنبه عليها واعظ ، زكي السيرة ، وقد خلت البلاد عنه ، وإن فرض على ندور لم يلتفت إليه ، وإن التفت إليه ووقع الإحساس به في الحال ، وحسن العزم على التجرد للطاعة في

(١) في الأصل : ينتبهون .

الاستقبال ، هجمت عقب ذلك شهوة من الشهوات وأزالت أثر التنبيه ، وأعادت حجاب الغفلة ، وعاد العاقل لما نهى عنه . ولا يزال هكذا شأن كل واحد الى الموت ، وعند ذلك لا يبقى له الا التحسر بعد الفوت ، ولا يغني ذلك عنه شيئاً فنعوذ بالله من الغفلة ، فانها منشأ كل شقاؤه .

بيان أن طريق السعادة العلم والعمل :

فان قلت : قد اتضح لي أن سلوك سبيل السعادة حزم العقلاء ، والتهاون بها غفلة الجهال ، ولكن كيف يسلك الطريق من لا يعرفه ، فبماذا أعلم بان العلم والعمل هو الطريق ، حتى أشتغل به ؟ فلك في معرفته طريقان : أحدهما جملى ، يناسب المنهاج السابق ، وهو أن تلتفت إلى ما اتفق عليه آراء الفرق الثلاث [1] ، وقد أجمعوا على أن الفوز والنجاة لا تحصل إلا بالعلم والعمل جميعاً ، وأن اتفقوا على أن العلم أشرف من العمل . وكأن العمل متمم له وسائق بالعلم الى أن يقع موقعه ، ولأجله قال الله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [2] ، والكلم الطيب يرجع إلى العلم عند البحث ، فهو الذي يصعد ويقع الموقع ، والعمل كالخادم له يرفعه ويحمله . وهذا تنبيه على علو رتبة العلم . ومذهب الفرقة الأولى ، وهم المتمسكون بالمفهوم الأول للجماهير من ظواهر الشرع ، غير خاف [3] ربطه النجاة بالعلم والعمل ، وبيانه لا يمكن أن يحصى . والصوفية والفلاسفة ، الذين آمنوا بالله واليوم الآخر على الجملة ، وإن اختلفوا في الكيفية ، كلهم متفقون على أن السعادة في العلم والعبادة . وإنما نظرهم في

---

(١) وهي أهل الظاهر والصوفية الفلاسفة .

(٢) سورة فاطر الآية ١٠ .

(٣) في الأصل : خافٍ على .

تفصيل العلم والعمل ، والتوقف مع هذا الاتفاق حمق . فمن استولت عليه علة ، واتفق كتب الأطباء وأقوالهم ، مع اختلاف أصنافهم ، على أن النافع لهذه العلة المبرّدات ، فتوقف المريض فيه سفه في عقله ، بل يقتضي العقل المبادرة إليه . نعم ، ربما يكون له طريق بعد ذلك إلى أن يتحقق ذلك ، لا عن تقليد للجماهير بل عن تحقيق لحقيقة العلة ، ووجه مناسبة المبردات لإزالتها ، فينتهض بصيراً إذا نظر واستقل ، وترقّى عن حضيض التقليد والاتباع ، إلى ذروة الاستبصار . فكذلك قد ادعى الصوفية وفرق سواهم انه يمكن الوصول إلى درك ذلك بالبصيرة والتحقيق ، وذلك أن تعرف حقيقة الموت ، وأنه يرجع إلى خروج الآلة عن الصلاة للاستعمال ، لا إلى انعدام المستعمل .

ثم تعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته في وصوله إلى كماله الخاص به . ثم تعلم أن الكمال الخاص بالإنسان هو إدراك حقيقة العقليات ، على ما هي عليه ، دون المتوهمات والحسيات التي يشاركه الحيوانات فيها . ثم تعلم أن النفس بالذات متعطشة إليه ، وبالفطرة مستعدة له ، وإنما يصرفها عنه اشتغالها بشهوات البدن وعوارضه مهما استولت عليه ومهما كسر الشهوة وقهرها وخلص العقل عن رقها واستعبادها إياه ، وأكب بالتفكر والنظر على مطالعة ملكوت السموات والأرض ، بل على مطالعة نفسه وما خلق فيها من العجائب ، فقد وصل إلى كماله الخاص ، وقد سعد في الدنيا إذ لا معنى للسعادة إلا نيل النفس كمالها الممكن لها ، وإن كانت درجات الكمال لا تنحصر . ولكن لا يشعر بتلك اللذة ما دام في هذا العالم ممنوعاً بالحس والتخيل وعوارض النفس ، كالذي عرض للمطعم الألذ ، وفي ذوقه خدر فيزول ، فيشعر باللذة المفرطة . فالموت مثل زوال الخدر ، فقد سمعت مقدّماً من متوعي الصوفية يصرح بأن السالك إلى الله تعالى يرى الجنة وهو في الدنيا ، والفردوس الأعلى معه في قلبه ، إن أمكنه الوصول إليه . وإنما